المنتقى من كتاب

"طريق الهجرتين وباب السعادتين"

للعلامة ابن القيم

إعداد

فهد بن عبدالعزيز الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد:

فمن كتب العلامة ابن القيم رحمه الله المهمة: كتاب " طريق الهجرتين وباب السعادتين " فهو يتكلم عن قواعد السلوك والسير إلى الله عز وجل, فهو مماثل لكتابه " مدارج السالكين " والمقصود بالهجرتين: هجرة العبد إلى الله سبحانه بالمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والخوف والرجاء, وهجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتابعته والتأسي به في كل شؤونه, والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

والمقصود بالسعادتين: سعادة العبد في الدارين: الدنيا والآخرة.

ولأهمية الكتاب فقد انتقيتُ مباحث منه, لا تغني عن أصل الكتاب, أسأل الله الكريم أن تكون نافعة لمن يقرأها.

مقدمة العلامة ابن القيم

قال رحمه الله: الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم من بريته, واختصَّهم بنعمته, وفضلهم على سائر خليقته, فهي (كشجرةٍ طيبةٍ

أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتى أُكلها كُلَّ حين بإذن ربها] [إبراهيم: ٢٤-٢٥] وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب, وفروعها من الكلام الطيب والعمل الصالح في السماء, فلا تزال هذه الشجرة تُخرجُ ثمرها كلَّ وقتٍ بإذن ربَّها من طيب القول وصالح العمل مما تقرُّ به عين صاحب الأصل وعيون حفظته وعيون أهله وأصحابه ومن قرُب منه. فإن من قرت عينه بالله قرَّت به كلُّ عين, وأنس به كلُّ مستوحش, وطاب به كل خبيث, وفرح به كلُّ حزين, وأمِنَ به خائف, وشهد به كلُّ غائب, وذكَّرت رؤيتُه بالله, فإذا رُئي ذُكِرَ الله.

قد اطمأن قلبُه بالله, وسكنت نفسه إلى الله, وخلصت محبته لله, وقصَرَ خوفه من الله, وجعل رجاءه كلَّه لله, فإن سمع سمع بالله, وإن أبصر أبصر بالله, وإن بطش بطش بالله, وإن مشى مشى بالله, فبه يسمع, وبه يبصر, وبه يبطش, وبه يمشى, فإذا أحبَّ أحبَّ لله, وإذا أبغض أبغض لله, وإذا أعطى فلله, إذا منع فلله.

قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه, وغاية قصده ومنتهى طلبه, واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه. فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه, وأفرد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

-(٤)-

فصل

[في أنَّ الله هو الغنى المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه]

قال الله تعالى: (يا أيها الناسُ أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيُ الحميد] [فاطر:١٥] بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا يتفك عنهم, كما أنَّ كونه غنياً حميداً أمر ذاتي له, فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه..كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

الفقر فقران:

فقر اضطرار, وهو فقر عام لا خروج لبرٍّ ولا فاجر عنه, وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً, ل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه, والثاني معرفته بنفسه, فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين, فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق, ومن عرف نفسه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة, ومن عرف نفسه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله تعالى أخرج العبد من بطن أُمه لا يعلم شيئاً, ولا يقدر على شيءٍ, ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاءٍ ولا منع, ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة...

فلما أسبغ عليه نعمته, وأفاض عليه رحمته, وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً, وخلع عليه ملابس إنعامه, وجعل له السمع والبصر والفؤاد, وعلمه, ـ(٥) وأقدره, وحركه, وصرفه, ومكنه من استخدام بني جنسه, وسخر له الخيل والإبل, وسلَّطه على دواب الماء, واستنزال الطير من الهواء, وقهر الوحوش العادية, وحفر الأنهار, وغرس الأشجار, وشقِّ الأرض, وتعلية البناء, والتحيل على جميع مصالحه,

والتحرز والتحفظ مما يؤذيه ظن المسكين أن له نصيباً من الملك, وادعى لنفسه ملكةً مع الله, ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى, ونسى ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة, حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج المضطر, بل كان ذلك شخصاً آخر غيره.

ومن ههنا خُذلَ من خُذلَ ووُفقَ من وُفقَ, فحُجب المخذول عن حقيقته وأُنسي نفسه, فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه, فطغى وبغى وعتا, فحقت عليه الشقوة, قال تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغي * أن رأه استغنى] [العلق:٦-٧] وقال: (فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى* فسنيسره لليسرى* وأمَّا بخل واستغنى * وكذب بالحسنى* فسنيسرُهُ للعسرى] [الليل:٥-١٠]

فأكملُ الخلق أكملُهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وحاجته وضرورته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين, ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (أصلح لي شأني كلَّه, ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين, ولا أحدٍ من خلقك)

وكان يدعو (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) يعلم صلى الله عليه وسلم أن قلبه بيد الرحمن ز وجل لا يملك هو منه شيئاً, وأن الله عز وجل يصرفه كما يشاء, كيف وهو يتلو قوله عز وجل: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً] [الإسراء:٧٤] ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلةً, وأعظمهم عنده جاهاًَ, وأرفعهم عنده منزلةً, لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عزَّ وجل.

-(٦)

كلَّ من تعلق بشيء غير الله انقطع به أحوج ما كان إليه:

قال رحمه الله: كلَّ من تعلق بشيء غير الله انقطع به أحوج ما كان إليه, كما قال تعالى: (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

الأسباب][البقرة:١٦٦] فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي كانت بغير الله ولغير الله...فكلَّ عمل باطل إلا ما أريد به وجهه, وكل سعي لغيره فباطل ومضمحل. وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكدّ والخدمة التي يفعلها العبد لمتولٍّ أو أمير أو صاحب منصب أو مال, فإذا زال ذلك الذي عمل له وعُدِمَ ضلّ ذلك العمل, وبطل ذلك السعي, ولم يبق في يده سوى الحرمان. ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقةً وأغبنهم يوم معاده, فإنه يحال على مفلس كلَّ الإفلاس بل على عدم, والموحّد حوالته على المليء الكريم, فيا بُعد ما بين الحوالتين.

أغنياء لا يرون لأنفسهم ملكاً حقيقياً:

قال رحمه الله: سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم أوتي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده, وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام, وكذلك أغنياءُ الصحابة, فهؤلاء...بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم, فلا يرون لها ملكاً حقيقياً, بل يرون ما في أيديهم لله عاريةً ووديعةً في أيديهم, ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم.

(٧)-

من ملك المال فعوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره

قال رحمه الله: وجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره, إنما يقدح في فقره رؤيته لملكته, فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره, وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله, فهذا لو كان بيده من لمال مثل جبال الدنيا لم يضره.

ومن لم يُعافَ من ذلك ادعت نفسه الملكة, فتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب المعشوق, فهو أكبر همّه ومبلغ علمه, إن أعطى رضي, وإن منع سخط, فهو عبد الدينار والدرهم, يصبح مهموماً به, ويمسي كذلك, فيبيت مضاجعاً له, تفرح نفسه إذا ازداد, وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء, بل يكاد يتلف إذا توهمت نفسه الفقر, وقد يؤثر الموت على الفقر.

والأول مستغن بمولاه المالك الحي الذي بيده خزائن السموات والأرض, وإذا أصاب المال الذي في يده نائبة رأى أن المالك الحق هو الذي أصاب مال نفسه, فما للعبد وما للجزع والهلع؟ فله الحكم في ماله: إن شاء أبقاه وإن شاء ذهب به وأفناه فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه, ويرى تدبيره هو موجب الحكمة, فليس لقلبه بالمال تعلق, ولا له به اكتراث, لصعوده عنه وارتفاع همته إلى المالك الحق, فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه, وهو فقير إليه دون ما سواه, فهذا البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان, كما قال تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغي * أن رأه استغنى) [العلق:٦-٧] ولم يقل: (إن استغنى) بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤيته غنى نفسه...والمقصود أن الاستغناء عن الله سببُ هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى, ورؤيته غنى نفسه سببُ طغيانه, وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية.

-(٨)

فصل

[في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافلٍ]

أقسام الغنى:

قال رحمه الله: الغنى قسمان: غنى سافل, وغنى عال.

فالغنى السافل: الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث, وهذا أضعف الغنى, فإنه غنى بظل زائل, وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها, فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها, وكأنَّ الغنى بها كان حُلماً فانقضى, ولا همة أضعف من همَّة من رضى بهذا الغنى الذي هو ظل زائل.

وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون, وإيّاه يطلبون, وحوله يحومون, ولا أحبَّ إلى الشيطان وأبعد من الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى وبالخوف من فقده

وأما الغني العالي...فثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ليس الغنى عن كثرة العرض, ولكن الغنى غنى النفس) ومتى استغنت النفس استغنى القلب..وفي القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغني الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كل شيء, وإن فاته فاته كل شيء, فكما أنه سبحانه الغنيُّ على الحقيقة ولا غنيَّ سواه, فالغنى به هو الغنى في الحقيقة ولا غنى بغيره ألبتة, فمن لم يستغن به عمَّا سواه تقطعت نفسه على السوى حسرات, ومن استغنى به زالت عنه كلُّ حسرة, وحضره كل سرور وفرح, والله المستعان.

-(٩)

درجات الغنى العالي:

الدرجة الأولى: غنى القلب:

قال رحمه الله: غنى القلب: "سلامته من السبب" أي من الفقر إلى السبب, وشهوده, والاعتماد عليه, والركون إليه, والثقة به, فمن كان معتمداً على سبب غنياً به واثقاً به لم يطلق عليه اسم "الغني" لأنه فقير إلى الوسائط, بل لا يسمى صاحبه

غنياً إلا إذا سلم من علة السبب استغناءً بالمسبب, بعد الوقوف على رحمته وتصرفه وحسن تدبيره, فلذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله عز وجل.

فمن كملت له السلامة من علة الأسباب, ومن علة المنازعة للحكم, بالاستسلام له, والمسالمة أي بالانقياد لحكمه...حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمتة....ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر, وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الربِّ, فإن مخاصمة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة, ومن كان فقيراً إلى حظٍّ من الحظوظ يسخط لفوته, ويخاصم الخلق عليه, لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته لكمال تفويضه إلى وليّه وقيومه ومتولى تدبيره.

فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب, ومن علَّة منازعته لأحكام الله عز وجل, ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه, مفوضاً إليه, لا يفتقر قلبه إلى غيره, ولا يسخط شيئاً من أحكامه, ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه, فتكون مخاصمته لله وبالله, ومحاكمته إلى الله.كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاح صلاة الليل: (اللهم لك اسلمت وبك آمنت, وعليك توكلتُ, وإليك أنبتُ, وبك خاصمتُ, وإليك حاكمتُ)

-(١٠)

الدرجة الثانية: غنى النفس:

قال رحمه الله: غنى النفس...استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه, وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويُبغضها, وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيماً لله وأمره, وإيماناً به, واحتساباً لثوابه, وخشية من عقابه, لا طلباً لتعظيم

المخلوقين له ومدحهم, وهرباً من ذمهم وازدرائهم, وطلباً للجاه والمنزلة عندهم, فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله, والبعد منه, وأنه أفقر شيء إلى المخلوق.

فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها, لأنها إذا أذعنت منقادةً لأمر الله طوعاً واختياراً ومحبةً وإيماناً واحتساباً, بحيث تصير لذتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته, كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يا بلال أرحنا بالصلاة) وقال صلى الله عليه وسلم: (حُبِّب إلى من دنياكم النساءُ والطيبُ, وجعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة)

الدرجة الثالثة: الغنى بالحق سبحانه:

قال رحمه الله: الدرجة الثالثة من الغنى: الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كلِّ ما سواه, وهي أعلى درجات الغنى.

فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكرَ الله عز وجل إيَّاك قبل ذكرك له, وأنه تعالى ذَكَرَك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك, فقدّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً ألبتة, وذكرك سبحانه بالإسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله قال تعالى:(هو سماكم المسلمين من قبل] [الحج:٧٨] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره, فلولا ذكره لك بكل جميلٍ أولاكه لم يكن لك إليه سبيل.

-(١١)

ومن الذي ذكرك باليقظة, حتى استيقظت, وغيرك في رقدة الغفلة مع النوَّام.

ومن الذي ذكراك سواه بالتوبة حتى وفقك لها, وأوقعها في قلبك, وبعث دواعيك عليها, وأحيا عزماتك الصادقة عليها, حتى تُبت إليه, وأقبلت عليه, فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذَّتها.

ومن الذي ذكرك سواه بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها, وتوجهت نحوه سبحانه ركائبها, وعمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب, وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب ؟ ومن تقرب إليك حتى تقربت إليه, ثم أثابك على هذا التقرب تقرباً آخر, فصار التقرب منك محفوفاً بتقربين منه تعالى: تقرب قبله, وتقرُّبٍ بعده, والحبُّ منك محفوفاً بحبَّين منه: حبٍّ قبله, وحُبٍّ بعده, والذكر منك محفوفاً بذكرين: ذكرٍ قبله, وذكرٍ بعده.

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء, ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه, فهذه كلها آثاره ذكره لك.

ثم إنه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس, فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك, وتعرف بها إليك, وتحبب بها إليك , مع غناه التام عنك وعن كل شيء, وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده, وإذا هو الجواد المحسن لذاته, لا معاوضة, ولا لطلب جزاء منك, ولا حاجةٍ دعته إلى ذلك, كيف وهو الغني الحميد ؟ فإذا وصل إليك أدنى نعمه منه فاعلم أنه ذكرك بها, فلتعظم عندك لذكره لك بها. فإنه ما حقرك من ذكرك بإحسانه, وابتدأك بمعروفه, وتحبب إليك بنعمته, هذه كله مع غناه عنك.

-(١٢)

الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله: دوام شهود أوَّليته تعالى...فالعبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره, وهو الإله الحق الكامل في أسمائه وصفاته, الغني بذاته عما سواه, الحميد المجيد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده, فهو معبود محمود حي قيوم, له الملك وله الحمد في الأزل والأبد, لم

يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الجلال, منعوتاً بنعوت الكمال, وكل شيء سواه فإنما كان به, وهو تعالى بنفسه ليس بغيره, فهو القيوم الذي قيام كل شيءٍ به, ولا حاجة به في قيومته إلى غيره بوجه من الوجوه فإذا شهد العبدُ سبقَه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق, وغاب بهذا عما سواه من المحدثات.

وليس هذا مختصاً بشهود أوَّليته تعالى فقط, بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب جل جلاله يستغنى بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها.

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب جل جلاله: الفوز بوجوده: هذا الغنى أعلى درجات الغنى....فمن طلب الله بصدق وجده, ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيءٍ...ومن وصل إلى هذا الغنى قرت به كلُّ عين لأنه قرت عينه بالله والفوز بوجوده, ومن لم يصل إليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات, وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أصبحَ والدنيا أكبرُ همِّه جعل الله فقرهُ عينيه, وشتَّت عليه شملهُ, ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له, ومن أصبحَ والآخرة أكبرُ همِّه جعل الله غناه في قلبه, وجمع عليه شمله, وأتته الدنيا وهي راغمه...)

فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي, وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرةُ أكبرَ همِّه, فكيف من كان الله عز وجل أكبر همِّه, فهذا من باب التنبيه والأولى.

-(١٣)

فصل

[نعت الفقير حقاً]

قال رحمه الله: فجملة نعت الفقير حقاً أنه المتخلى من الدنيا تظرفاً, والمتجافى عنها تعففاً, لا يستغنى بها تكثراً, ولا يستكثر منها تملكاً, وإن كان مالكاً بهذا الشرط لم تضره, بل هو فقير غناه في فقره, وغنى فقره في غناه.

ومن نعته أنه يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة, فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه.

خاضع, متواضع, سليم القلب, سلِس القيادة للحق, سريع القلب إلى ذكر الله, بريء من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله, زاهد في كل ما سوى الله, راغب في كلِّ ما يقرب إلى الله, قريب من الناس, أبعد شيءٍ منهم, يأنس بما يستوحشون منه, ويستوحش مما يأنسون به, متفرد في طريق طلبه, لا تقيده الرسوم, ولا تملكه العوائد, ولا يفرح بموجود, ولا يأسف على مفقود.

من جالسه قرت عينه به, ومن رآه ذكرته رؤيته بالله, قد حمل كلَّه ومؤنته عن الناس, واحتمل أذاهم, وكف أذاه عنهم, وبذل لهم نصيحته, وسبَّل لهم عرضة ونفسه لا معاوضة ولا لذلة وعجز, لا يدخل فيما لا يعنيه, ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال.

لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضاً, ولا مدحه, لا بعاتب, ولا يخاصم, ولا يطالب, ولا يرى له على أحدٍ حقاً, ولا يرى له على أحدٍ فضلاً.

مقبل على شأنه, مكرم لإخوانه, بخيل بزمانه, حافظ للسانه, مسافر في ليله ونهاره, ويقظته ومنامه, لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

-(١٤)

قاعدة شريفة عظيمة القدر

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس بل وإلى الروح التي بين جنبيه

قال رحمه الله: الله سبحانه وتعالى هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له, وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه, فلا معبود سواه, ولا معين على المطلوب غيره, وما سواه هو المكروه المطلوبُ بُعدُه, وهو المعينُ على دفعه,

الله سبحانه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له, فبذكره تطمئن قلوبهم, وبرؤيته في الآخرة تقرُّ عيونهم, ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحبَّ إليهم من النظر إليه, ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحبَّ إليهم من الإيمان به, ومحبتهم له, ومعرفتهم به.

العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه, وأنسِه به, وطاعته له, وإقباله عليه, وطمأنينته بذكره, وعمارة قلبه بمعرفته, والشوق إلى لقائه, فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه, ويطمئن به, ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه, ومن عبد غيره وأحبه – وإن حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده– ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عذب في مبدئه, وعذاب في نهايته.

فحاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً في محبته, ولا في خوفه, ولا في رجائه, ولا في التوكل عليه, ولا في العمل له, ولا في الحلف به, ولا في النذر له, ولا في الخضوع له, ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه, والعين إلى نورها, بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

ـ(١٥)

فصل: الناس يريدون منفعة أنفسهم لا منفعتك

قال رحمه الله: لا أحد من المخلوقين..يقصد منفعتك...بل إنما يقصد منفعته بك, وقد يكون عليك في ذلك ضرر...وأما الربُّ تبارك وتعالى فهو يريد لك ولمنفعتك لا لينتفع بك, وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها.

فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة, فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك فإنه لا يريد ذلك البتة بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلاً أو آجلاً, فهو يريد نفسه لا يريدك ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه, فتأمل ذلك, فإن فيه منفعة عظيمةً, وراحةً ويأساً من المخلوقين, وسداً لباب عبوديتهم, وفتحاً لباب عبودية الله وحده, فما أعظم حظَّ من عرفَ هذه المسألة ورعاها حقَّ رعايتها.

ولا يحملنك هذا على جفوة الناس, وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم, بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم, فكما لا تخفهم لا ترجُهم.

صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها, فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجاتهم, بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة, وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة, فهم يريدون أن يصيروك كالكير, تنفخ بطنك وتعصر أضالعك في نفعهم ومصالحهم, بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزُرون الشاة! وكم يذبحونك في كل وقت بغير سكين لمصالحهم, وكم اتخذوك جسراً ومعبراً لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت

والله إن هم إلا أعداء في صورة أولياء, وحرب في صورة مسالمين, وقطاع طريق في صورة أعوان, فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث.

(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم] [التغابن: ١٤]

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هُم الخاسرون] [المنافقون: ٩]

فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم, ولم يعاملهم في الله, وخاف الله فيهم, ولم يخفهم في الله, وأرضى الله بسخطهم, ولم يُرضهم بسخط الله, وراقب الله فيهم, ولم يراقبهم في الله, وآثر الله عليهم, ولم يؤثرهم على الله, وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه, وأحيا حبَّ الله وخوفه ورجاءه فيه, فهذا هو الذي يكتب عليهم, وتكون معاملته لهم كلُّها ربحاً, بشرط أن يصبر على أذاهم, ويتخذه مغنماً لا مغرماً, وربحً لا خسراناً.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة, إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره, فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو: (وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخيرٍ فلا رادَّ لفضله] [يونس: ١٠٧]

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عباس: (واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك, ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ كتبه الله عليك)

وإذا كانت هذه حال الخليقة, فتعليق الخزف والرجاء بهم ضار غير نافع.

فصل: إذا سُلبت نعمة فأنت السبب في ذلك

قال رحمه الله: الله سبحانه..يحب الجود والبذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته, فإذا حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك, وأنت المعوق لوصول فضله إليك, وأنت حجر في طريق نفسك, وهذا الأمر هو الأغلب على الخليقة, فإنه سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا يُنال إلا بطاعته, وأنه ما استُجلبت نعم الله بغير طاعته, ولا استُديمت بغير شكره, ولا عُوقت وامتنعت بغير معصيته, وكذلك إذا نعم عليك ثم سلبك النعمة فإنه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك, وإنما أنت السبب في سلبها عنك, فإن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم.

(ذلك بأن الله لم يكُ مُغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم] [الأنفال:٥٣] فما أُزيلت نعمُ الله بغير معصيته:

إذا كنت في نعمةٍ فارعها فإن الذنوب تُزيلُ النِّعم

فآفتك من نفسك, وبلاؤك منك, وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك, وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك.

ولو شعرت بدائك, وعلمت من أين دُهيت ومن أين أُصبت, لأمكنك تدارك ذلك ولكن فسدت الفطرة وانتكس القلب, وأطفأ الهوى مصابيح العلم والإيمان منه, فأعرضت عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه, وأقبلت تشكو من كلُّ إحسان دقيق أو جليل وصل إليك منه, فإذا شكوته إلى خلقه كنت كما قال بعض العارفين وقد رأى رجلاً يشكو إلى آخر ما أصابه: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

(١٨)-

قاعدة

[موقف العبد من البلاء]

قال رحمه الله: إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الابتلاء والامتحان إلى ربه, وجمعه عليه, وطرحه ببابه, فهو علامة سعادته وإرادة الخير به, والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت, فتقلع عنه حين تقلع, وقد عُوِّض منها أجلَّ عوض وأفضله, وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه, وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه, وانطراحه على بابه وقد كان عنه معرضاً, وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً.

وكانت البلية في حق هذا عين النعمة, وإن ساءته, وكرهها طبعه, ونفرت منها نفسه.

فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب

وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون] [البقرة:٢١٦]

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه, بل شرد قلبه عنه, ورده إلى الخلق, وأنساه ذكر ربه, والضراعة إليه, والضراعة إليه, والتذلل بين يديه, والتوبة والرجوع إليه, فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به, فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته, وسلطان شهواته, ومرحه وفرحه, فجاءت طبيعتهُ عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء, كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء, فبليةُ هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه, وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

-(١٩)

قاعدة

[في الإنابة ودرجاتها]

قال رحمه الله: الإنابة: الرجوع إلى الله, وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه, وهي تتضمن المحبة والخشية, فإن المنيب محب لمن أناب إليه, خاضع له, خاشع ذليل والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة فمنهم المنيب بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد والحامل عليها العلم والخشية والحذر ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات, فهو ساع فيها بجهده, وقد حُبِّب ٤ليه فعل الطاعات وأنواع القربات, وهذه الإنابة مصدرها الرجاء, ومطالعة الوعد والثواب, ومحبة الكرامة من الله, وهؤلاء أبسط نقوساً من أهل القسم الأول, وأشرح صدوراً, وجانبُ الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم, وإلا فكلٌّ واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً, ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم, فأنابوا بالعبادات, ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم, فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع, والدعاء, والافتقار إليه, والرغبة, وسؤال الحاجات كلها منه, ومصدر هذه الإنابة: شهود الفضل, والمنة, والغنى, والكرم, والقدرة, فأنزلوا به حوائجهم, وعلقوا به آمالهم.

ومنهم المنيب عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار, لا إنابة اختبار, كحال الذين قال الله فيهم: (وإذا مسكم الضّرُّ ضلَّ من تدعون إلا إياه] [الإسراء:٦٧] وقوله: (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين] [العنكبوت:٦٥]

-(٢٠)

قاعدة

[الطريق إلى الله واحد]

قال رحمه الله: الناس قسمان: عِلية, وسفلة, فالعلية من عرف الطريق إلى ربه, وسلكها قاصداً للوصول إليه, وهذا هو الكريم على ربه, والسفلة من لم يعرف

الطريق إلى ربه, ولم يتعرفها, فهذا هو اللئيم الذي قال الله تعالى فيه: (ومن يُهن الله فما له من مكرمٍ] [الحج:١٨]

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه, وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه, قال الله تعالى: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل] [الأنعام:١٥٣] فوحَّد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه, وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة.

ومن...عرف طريقاً موصلة إلى الله, ثم تركها, وأقبل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته, وقع في آبار المعاطب, وأودع قلبه سجون المضايق, وعُذب في حياته عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين, فحياته عجز وغم وحزن, وموته كمد وحسرة, ومعاده أسف وندامة, قد فرط عليه أمره, وشُتِّت عليه شمله, وأحضرت نفسه الغموم والأحزان, فلا لذة الجاهلين, ولا راحة العارفين, يستغيث فلا يُغاث, ويشتكي فلا يُشكى, قد ترحلت أفراحه وسروره مدبرةً, وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته مقبلة, قد أبدل بأنسه وحشةً, وبعزه ذلاً, وبغناه فقراً, وبجمعيته تشتتاً.

ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله, ثم تركها ناكباً عنها مكباً على وجهه, فأبصر ثم عمى, وعرف ثم أنكر, وأقبل ثم أدبر, ودُعي فما أجاب, وفُتح له فولى ظهره الباب قد ترك طريق مولاه, وأقبل بكليته على هواه.

-(٢١)

فلو نال بعض حظوظه, وتلذذ براحاته وشهواته, فهو مقيد القلب عن انطلاقه في فسيح التوحيد, وميادين الأُنس, ورياض المحبة, وموائد القرب.

قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين...قبر يمشي على وجه الأرض, فروحه في وحشةٍ في جسمه, وقلبه في ملالٍ من حياته, يتمنى الموت

ويشتهيه, ولو كان فيه ما فيه, حتى إذا جاء الموت على تلك الحال – والعياذ بالله – فلا تسأل عما يحل به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق, وإحراقه بنار البعد عن قربه والإعراض عنه, وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيته.

فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية, ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وأعماله, وقارنه سوء الحال وفساده في دينه ومآله, فإن الرب الرب تعالى إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس, وأظلمت أرجاؤها, وانكشفت أنوارها, وظهر عليها وحشة الإعراض, وصارت ماوى للشياطين, وهدفاً للشرور, ومصباً للبلاء.

فالمحروم كل المحروم من عرف طريقاً إليه, ثم أعرض عنها, أو وجد بارقة من حبه ثم سُلِبها, لم ينفذ إلى ربه منها

قد مضت عليه برهة من أوقاته, وكان همه الله, وبغيته قربه ورضاه وإيثاره على كل ما سواه, على ذلك يصبح ويمسي, ويظل ويضحى, وكان الله في تلك الحال وليه, لأنه ولي من تولاه, وحبيب من أحبه ووالاه, فأصبح في سجن الهوى ثاوياً, وفي أسر العدو مقيماً, وفي بئر المعصية ساقطاً, وفي أودية الحيرة والتفرقة هائماً, معرضاً عن المطالب العالية إلى الأغراض الخسيسة الفانية.

-(٢٢)

فصل: أقسام الزهد

قال رحمه الله: الزهد على أربعة أقسام:

أحدها: فرض على كل مسلم, وهو الزهد في الحرام.

الثاني: زهد مستحب, وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه, وهو الزهد في المكروه وفضول المباح والتفنن في الشهوات المباحة.

الثالث: زهد..المشمّرون في السير إلى الله. وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة, وليس المراد تخليتها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها, وإنما إخراجها من قلبه بالكلية, فلا يلتفت إليها, ولا يدعها تُساكن قلبه وإن كانت في يده, فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك, وهي في قلبك, وإنما الزهد أن تتركها من قلبك, وهي في يدك, وهذا كحال الخلفاء الراشدين, وعمر بن عبدالعزيز الذي يضرب بزهد المثل, مع أن خزائن الأموال تحت يده, بل كحال سيد ولد ابن آدم صلى الله عليه وسلم حين فُتح عليه من الدنيا ما فُتِحَ, ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها.

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل, وخيال زائر, وأنها كما قال تعالى فيها: (أنما الحياة لدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثلِ غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيجُ فتراه مُصفراً ثم يكونُ حُطاماً] [الحديد: ٢٠]

وقال تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كان شيءٍ مقتدراً] [الكهف: ٤٥]

-(٢٣)

وقال تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناسُ والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زُخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون] [يونس: ٢٤]

سماها سبحانه متاع الغرور, ونهى عن الاغترار بها, وأخبر عن سوء عاقبة المغترين بها, وحذرنا مثل مصارعهم, وذم من رضي بها واطمأن إليها.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مالي وللدنيا ! إنما أنا كراكبٍ قال في ظل شجرةٍ ثم راح وتركها)

فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همّة دنية, وعقل حقير, وقدر خسيس!

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً, وهي دار البقاء, وأن نسبتها إليها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليم, فلينظر بم ترجع؟) فالزاهد فيها لكمال بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه ولك عوضه مائة ألف دينار مثلاً, فألقاه من يده رجاء ذلك العوض, فالزاهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم زّهِدَ فيها.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً مما كُتِبَ له منها, وأن حرصه عليها لا يجلُب له ما لم يُقضَ له منها, فمتى تيقن ذلك, وصار له علم اليقين, هان عليه الزهد فيها.

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها, وتُثبت قدمه في مقامه, والله الموفق لمن يشاء.

-(٢٤)

النوع الثاني: الزهد في نفسك, وهو أصعب الأقسام وأشقها, وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه, فإن الزاهد يُسهِّل عليه الزهد في لحرام سوءُ مغبته, وقبحُ ثمرته, وحمايةً لدينه, وصيانة لإيمانه, وإيثاراً للذة والنعيم على العذاب, وأنفةً من مشاركة الفساق والفجرة, وحمية من أن يستأسر لعدوه, ويسهِّل عليه الزهد في المكروهات

وفضول المباحات علمُه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم, ويسهل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الأعلى, وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين, وهو نوعان:

إحدهما وسيلة وبداية: وهو أن تميتها, فلا تُبقي لها عندك من القدر شيئاً, فلا تغضب لها, ولا ترضى لها, ولا تنتصر لها, ولا تنتقم لها, قد سبَّلت عِرضها ليوم فقرها وفاقتها, فهي أهون عليك من أن تنتصر لها, أو تنتقم لها, أو تجيبها إذا دعتك, أو تكرمها إذا عصتك, أو تغضب لها إذا ذُمَّت, بل هي عندك أخسّ مما قيل فيها, أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك وإن كان صعباً عليها.

وهذا وإن كان ذبحاً لها وإماتةً عن طباعها وأخلاقها, فهو عين حياتها وصحتها, ولا حياة لها بدون هذا البتة, وهذه العقبة هي آخر عقبة يُشرف منها على منازل المقربين, وينحد منها إلى دار البقاء, ويشرب من عين الحياة, وتخلص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات, وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق.

النوع الثاني: غاية وكمال وهو أن تبذلها للمحبوب جملةً بحيث لا تستبقي منها شيئاً بل تزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله, قد تعلقت رغبةُ محبوبه به, فهل يجد من قلبه رغبةً في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟ فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسلمها لربه فهو يبذلها له دائماً يتعرض منه لقبولها ـ(٢٥)

قاعدة: أسباب الصبر على المعصية

قال رحمه الله: الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علمُ العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها, وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانةً لعبده وحمايةً عن الدنايا والرذائل, كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره, وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلَّق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله عز وجل, فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومستمع, وكان حيًّا حييًّا, استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك, فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد, فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب, فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها, وإن أصر لم ترجع إليه, ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمةً نعمةً حتى يُسلب النعم كلها, قال الله تعالى: (إن الله لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم] [الرعد:١١] وأعظم النعم الإيمان, وذنبُ الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة تزيلها وتسلبها.

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها, كما تأكل النارُ الحطب, عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه, وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده, والإيمان به وبكتابه ورسوله, وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين, ويضعف بضعفهما, قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور] [فاطر:٢٨] قال بعض السلف: كفى بخشية الله علماً, وبالاغترار به جهلاً.

السبب الخامس: قصر الأمل, وعلمه بسرعة انتقاله فهو حريص على ترك ما يضره (٢٦)-

السبب السادس: محبة الله سبحانه, وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه, فإن المحبّ لمن يحب مطيع, وكلما قوى سلطان المحبة في القلب كان

اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى, وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها.

وههنا لطيفة يجب التنبه لها, وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه, فإذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة, وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أُنس وانبساط وتذكر واشتياق, ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها, ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله, ولكن لا تحمله على ترك معاصيه, وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم, فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه, وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها, وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السابع: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتُها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها, وتخفض منزلتها وتُحقرها, وتسوي بينها وبين السفلة.

السب الثامن: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية, وقبح أثرها, والضر الناشئ منها:

من سواد الوجه, وظلمة القلب, وضيقه وغمه وحزنه وألمه, وانحصاره, وشدة قلقه واضطرابه, وتمزق شمله, وضعفه عن مقاومة عدوه

ومنها: ذلة بعد عزة.

ومنها: زوال أمنه وتبدله به مخافة, فأخوف الناس أشدهم إساءة.

ومنها: نقصان رزقه, فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ومنها: ضعف بدنه.

(٢٧)-

ومنها: حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس.

ومنها: الطبع والرين على قلبه, فإن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء, فإن تاب منها صُقل قلبه, وإن أذنب ذنباً آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه, فذلك هو الران, قال تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون] [المطففين: ١٤]

ومنها: أنه يحرم حلاوة الطاعة.

ومنها: علمه بفوات ما هو أحبّ إليه وخير له منها من جنسها, وغير جنسها, فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا, ولذة ما في الآخرة, كما قال تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها] [الأحقاف: ٢٠] فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا, بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة, وأما الكافر فلأنه لا يؤمن بالآخرة, فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا.

ومنها: علمه بأن عمله هو وليه في قبره وأنيسه فيه, شفيعه عند ربه, والمخاصم والمحاج عنه, فإن شاء جعله له, وإن شاء جعله عليه.

ومنها: أنه بالمعصية قد تعرض لمحق بركته في كل شيءٍ من مر دنياه وآخرته, فإن الطاعة تجلب للعبد بركات كل شيء, والمعصية تمحق كل بركة.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس...ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها, وهو: ثبات شجرة الإيمان في القلب فصبر العبد على المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه.

(٢٨)-

فصل: أسباب الصبر على البلاء

قال رحمه الله: والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها, وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن تخلق, فلا بد منها, فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى, وواجبه فيها, وهو الصبر بلا خلاف بين الأمة...فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى, فلا بد له منه, وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه, كما قال تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم] [الشورى:٣٠] وهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة, فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في رفع تلك المصيبة.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها, وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به, فليصبر على تجرعه, ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه, فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لا يحصل بدونه, فإذا طالعت نفسه كراهية هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره, قال الله تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون] [لبقرة:٢١٦]

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله, وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه, فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا ؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه...وجعل أولياه وحزبه خدماً له وعوناً له, وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طُرِدَ..وتضاعفت عليه المصيبة, وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها, ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب, كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعماً عديدة, وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة, وتشجيع القلب في تلك الساعة

العاشر: أن يعلم أن سبحانه يربي عبده على السراء والضراء, والنعمة والبلاء, فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال, فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال, وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف, فإن أصابه خير اطمأن به, وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه, فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته.

فلو علم العبد أن نعمه الله عليه في البلاء ليست بدون نعمته عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه بقوله: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج به خبثه ونحاسه, ويُصيره تبراً خالصاً يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره ؟

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء, فإن قويت أثمرت الرضا والشكر, فنسأل الله أن يسترنا بعافيته, ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

فصل: الحزن

قال رحمه الله: الحزن...نهى سبحانه عنه في غير موضع, كقوله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] [آل عمران:١٣٩] وقال تعالى:(ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون] [النحل:١٢٧] وقال تعالى: : (فلا تأس على القوم الفاسقين] [المائدة:٢٦] وقال تعالى (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا] [التوبة:٤٠] فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها, ولهذا يقول أهل الجنة: : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن] [فاطر:٣٤] فحمدوه سبحانه أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...) فالهم والحزن قرينان, وهما الألم الوارد على القلب, فإن كان على ما مضى فهو الحزن, وإن كان على ما يستقبل فهو الهم, فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل الحزن مما يستعاذ منه, وذلك لأن الحزن يُضعف القلب, ويُوهن العزم, ويغير الإرادة, ولا شيء أحبُّ إلى الشيطان من حزن المؤمن, قال تعالى: (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا] [المجادلة:١٠]

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره, والثواب عليه ثواب على المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره, كالمرض والألم ونحوهما.

قال تعالى حكاية عن نبيه أنه قال لصاحبه (لا تحزن إن الله معنا] [التوبة:٤٠] فدل على أنه لا حزن مع الله وأن من كان الله معه فما له وللحزن؟ وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله, فمن حصل الله له, فعلى أيّ شيء يحزن ؟ ومن فاته الله فبأيّ شيء يفرح؟ قال تعالى (قل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا][يونس:٥٨]

فصل: الخوف

قال رحمه الله: قد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين] [آل عمران:١٧٥] فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان.

وقال تعالى: (فلا تخشوا الناس واخشون] [المائدة:٤٤]

وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه, فقال تعالى عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً] [الأنبياء: ٩٠] فالرغب: الرجاء والرغبة, والرهب: الخوف والخشية.

وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون] [النحل:٥٠]

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية) وفي لفظ آخر: (إن أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقي) وكان صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

وقد قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور] [فاطر:٨]

فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف...ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به, فأعرف الناس أخشاهم لله, ومن عرف الله اشتدَّ حياؤه منه وخوفه له وحبه له, وكلما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفاً ورجاءً.

العبد إما أن يكون مستقيماً, أو مائلاً عن الاستقامة.

فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله, ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف, وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفة بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويُحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف, وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه, فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه يقبحه, وإما عدم علمه بسوء عاقبته, وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة, وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان, فإذا علم قبح الذنب, وعلم سوء مغبته, وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه, هذا قبل الذنب, فإن عمله كان خوفه أشدّ

وأما إن كان مستقيماً مع الله, فخوفه يكون مع جريان الأنفاس, لعلمه بأن الله مقلب القلوب, وما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل, فإن شاء أن يقيمه أقامه, وإن شاء أن يزيغه أزاغه, كما ثبت عن النبي صلى اله عليه وسلم, وكانت أكثر يمينه صلى الله عليه وسلم: (لا ومقلب القلوب, ولا ومقلب القلوب) قال بعض السلف: مثل القلب في سرعة تقلبه كريشةٍ مُلقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن) ويكفي في هذا قوله تعالى : (واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه] [الأنفال: ٤]

فأيّ قرار لمن هذه حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ بل خوفه لازم له في كل حال.

فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد, وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله, وأنه الفعال لما يريد, وأنه المحرك للقلب, المصر ف له, المقلب له كيف يشاء, لا إله إلا هو.

فصل: الإيثار

قال رحمه الله: والدين كله في الإيثار.

والفرق بين الإيثار والأثرة أن " الإيثار" تخصيص الغير بما تريده لنفسك, و" الأثرة" اختصاصك به على الغير.

الإيثار إما أن يتعلق بالخلق, وإما أن يتعلق بالخالق.

فإن تعلق بالخلق, فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً, ولا يفسد عليك حالاً, ولا يهضم لك ديناً, ولا يسد عليك طريقاً, ولا يمنع لك وارداً, فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك, فإيثار نفسك عليهم أولى, فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان...فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب قال الله تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] [الحشر:٩] فأخبر تعالى أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين, وهذا إنما هو في فضول الدنيا.

فإن قيل: فما الذي يُسهل على النفس هذا الإيثار, فإن النفس مجبولة على الأثرة, لا على الإيثار ؟ قيل: يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام, ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله للمسلمين بعضهم على بعض...فهو لخوفه من تضيع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره, ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا, وجزيل الأجر في الآخرة, مع ما يجلبه له الإيثار من البركة

والإيثار المتعلق بالخالق أجل من هذا وأفضل, وهو إيثار رضاه على رضى غيره, وإيثار حبه على حب غيره, وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه, وإيثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره, وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره.

وعلامة صحة هذا الإيثار شيئان:

أحدهما: فعل ما يحبه الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه

الثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه.

فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار.

ومؤنة هذا الإيثار شديدة...والنفس عنه ضعيفة, ولا يتم صلاح العبد وسعادته إلا به, وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

ولا تتحقّق المحبة إلا بهذا الإيثار, والذي يسهله على العبد أمور:

أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة, ليست بجافية ولا قاسية, بل تنقاد معه بسهولة.

الثاني: أن يكون إيمانه راسخاً ويقينه قوياً, فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

الثالث: قوة صبره وثباته.

والنقص والتخلف في النفس عن هذا يكون من أمرين:

أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك بل بطيئة, فلا يكاد يرى حقيقة الشيء إلا بعد عسر, وإن رآها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات.

الثاني: أن تكون القريحة وقادة دراكة, لكن النفس ضعيفة مهينة, إذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن إيثاره.

فصل: لا ألذّ لقلب المصلي ولا أقرّ لعينه من الصلاة إن كان محباً

قال رحمه الله: الصلاة..محك الأحوال وميزان الإيمان, بها يوزن إيمان الرجل, ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه, فإنها محل المناجاة والقربة, ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه, فلا شيء أقرَّ لعين المحب ولا ألذّ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محباً...فلا شيءأهم إليه من الصلاة, كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة, فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح, كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال: (يا بلال, أرحنا بالصلاة) ولم يقل: أرحنا منها, كما يقول المبطلون الغافلون. فالصلاة قرة عيون المحبين, وسرور أرواحهم, ولذة قلوبهم, وبهجة نفوسهم, يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها, كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة, فلهم فيها شأن وللنقارين شأن! يشكون إلى الله سوء صنيعهم بهم إذا ائتموا بهم, كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه, فسبحانه من فاضل بين النفوس, وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم.

وبالجملة فمن كانت قرة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه وأنعم عنده منها, وبوده أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها, وإنما يسلي نفسه إذا فارقها بأنه سيعود إليها عن قرب, فهو دائم يثوب إليها, ولا يقضي منها وطراً, فلا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة, فإنها الميزان العادل, الذي وزنه غير عائل.

-(٣٦)-

فصل: ذكر الله بالاسم المفرد " الله, الله" والاسم المضمر" هو, هو"

قال رحمه الله: رتب..بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد وهو " الله, الله " أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله " سبحان الله, والحمد لله, ولا إله إلا الله, والله أكبر "

وهذا فاسد مبني على فاسد, فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً, ولا مفيد شيئاً, ولا هو كلام أصلاً, ولا يدل على مدح ولا تعظيم, ولا يتعلق به إيمان, ولا ثواب, ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملةً, فلو قال الكافر" الله, الله " من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلماً, فضلاً أن يكون من جملة الذكر, أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله " هو, هو" أفضل من الذكر بقولهم: " الله. الله" وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات.

-(٣٧)

فصل: في مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها وهم ثمان عشرة طبقة

قال رحمه الله:

الطبقة الربعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم, وهو القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم, وهذه أفضل مرتب الخلق بعد الرسالة والنبوة, وهي مرتبة الصديقية, ولهذا قرنهم الله تعالى في كتابه بالأنبياء فقال: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً] [النساء:٦٩] فجعل درجة الصديقية تلي درجة النبوة, وهؤلاء هم الربانيون, وهم الراسخون في العلم, وهم الوسائط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته, فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه, وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق, لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

فيالها من مرتبة ما أعلاها, ومنقبة ما أجلها وأسناها, أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله, أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة, وصحف حسناته متزايدة تمتلى فيها الحسنات كل وقت, وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب. تلك – والله – المكارم والغنائم ! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وعليه يحسد الحاسدون! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء, والله ذو الفضل العظيم.

وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تُنفق نفائس الأنفاس عليها, ويستبق السابقون إليها, وتوفر عليها الأوقات, وتتوجه نحوها الطلبات, فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته, ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته الذين تأمن بهم السبل, ويستقيم بهم العالم, ويستنصر بهم الضعيف, ويذل بهم الظالم, ويأمن بهم الخائف, وتقام بهم الحدود, ويُدفع بهم الفساد, ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر, ويقام بهم حكم الكتاب والسنة, وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة.

وهؤلاء هم الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها, والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس, وقد بلغ منهم العرق مبلغه, وهو يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين أف سنة, ثم يرى سبيل أحدهم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم إلا أن أهل السماوات والأرض والطير في الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم, وولاة الظلم يلعنهم من بين السماء والأرض حتى الدواب والطير.

فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها: أن يكون الوالي والإمام على فراشه, وغيره يعمل بالخير, وتكتب الحسنات في صحائفه! فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله, ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره! فأين هذا من صفة الغاش لرعيته, الظالم لهم, الذي قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار!

الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله, وهو جند الله الذين يقيم بهم دينه, ويدفع بهم بأس أعدائه, ويحفظ بهم بيضة الإسلام, ويحمى بم حوزة الدين, وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله, وتكون كلمة الله هب العليا, قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه, وهو شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم, في أعمالهم التي يعملونها, وإن تناءت ديارهم, ولهم مثل أجور من عبد الله بسب جهادهم وفتوحهم, فإنهم كانوا هم السبب فيه. والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر, ولهذا كان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه.

وقد تظافرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد, والحضِّ عليه, ومدح أهله, والأخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات.

فهذه الدرجات هي درجات السبق, أعنى درجة العلم والعدل والجهاد, وبها سبق الصحابة رضي الله عنهم, وأدركوا من قبلهم, وفاتوا من بعدهم...وهم كانوا السبب في بلوغ الإسلام إلينا وفي تعليم كل خير وهدى وسبب تنال به السعادة والنجاة, وهم أعدل الأمة فيما ولوه, وأعظمها جهاداً في سبيل الله, والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة...فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف, والقلوب بالإيمان, وعمروا البلاد بالعدل, والقلوب بالعلم والهدى, فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافاً إلى أجر أعمالهم التي اختصوا بها, فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء, وإنما نالوا هذا بالعلم, والجهاد, والحكم بالعدل, وهذه مراتب السبق التي يهبها الله لمن يشاء من عباده.

الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم, من تفريج كرباتهم, ودفع ضروراتهم, وكفايتهم في مهماتهم, وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي صلى الله عليه وسم فيهم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس, ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق) يعني أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمه ويتمنى مثلها إلا أحد هذين, وذلك لما فيهما من النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق: فهذا ينفعهم بعلمه, وهذا ينفعهم بماله.

قال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم] [الحديد:١١] سمى ذلك الإنفاق قرضاً حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل, لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد, طوعت له نفسه بذله, وسهل عليه إخراجه, فإن علم أن المستقرض ملي وفي محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه, فإن علم أن المستقرض يتجر له بما أقرضه, وينميه له, ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله, كان بالقرض أسمح وأسمح, فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض, وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم, فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان, وذلك من ضعف إيمانه, ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.

وحيث جاء هذا الإقراض في القرآن قيده بكونه حسناً, وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله, لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبةً به نفسه, ثابتةً عند بذله, ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

قال تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلةٍ مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم] [البقرة: ٢٦١] قوله تعالي: (والله يضاعف لمن يشاء] قيل: المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء, لا لكل منفق, بل يختص برحمته من يشاء, وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه, وفي صفات المنفقين وأحواله, وفي شدة الحاجة وعظم النفع وحسن الموقع, وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك, فلا يقتصر به على السبعمائة, بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

المن نوعان:

أحدهما: منّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه, وهذا وإن لم يبطل الصدقة فهو يمنعه شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره. وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه, فلله المنَّة عليه من كل وجه, فكيف يشهد قلبُه منَّةً لغيره ؟

النوع الثاني: أن يمن بلسانه, فيعتد على من أحسن إليه بإحسانه, ويُريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقاً, وطوقه منَّةً في عنقه, ويقول: أما أعطيتك كذا وكذا ؟

وحظر الله سبحانه على عباده المن بالصنيعة, واختص به صفة لنفسه, لأن منَّ العباد تكدير وتعيير, ومنَّ الله سبحانه إفضال وتذكير.

الامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن تُمنّ عليه, ولا تصلح العبودية والذلّ إلا لله, وأيضاً: فالمنة أن يشهد المعطى أنه هو رب الفضل والإنعام وأنه ولي النعمة ومسديها, وليس ذلك في الحقيقة إلا الله...وأيضاً فإن المعطي قد تولى الله ثوابه, وردَّ عليه أضعاف ما أعطى, فبقي عوض ما أعطى عند الله, فأيّ حقٍّ بقي له قِبَلَ الأخذ ؟ فإذا امتنَّ عليه فقد ظلمه ظلماً بيناً.

قال تعالى: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أُكلها ضعفين فإن لم يُصيبها وابل فطل والله بما تعملون بصير] [البقرة:٦٥]

المنفق تعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثلُه ما ذكر في هذه الآية.

إحداهما: طلبه بنفقته محمدةً أو ثناءً أو غرضاً من أغراضه الدنيوية, وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه بالبذل وتقاعسها وترددها: هل تفعل أم لا ؟

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله, والآفة الثانية تزول بالتثبيت, فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل, وهذا هو صدقها. وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فهذه الطبقات الأربعة من طبقات الأمة هم أهل الإحسان والنفع المتعدي, وهم: العلماء, وأئمة العدل, وأهل الجهاد, وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله, فهؤلاء ملوك الآخرة, وصحائف حسناتهم متزايدة, تمتلى فيها الحسنات وهو في بطون الأرض, ما دامت آثارهم في الدنيا, فيا لها من نعمة ما أجلها, وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشا من عباده.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
مقدمة العلامة ابن القيم	٤
فصل: في أنَّ الله هو الغنى المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه	٥
كلَّ من تعلق بشيء غير الله انقطع به أحوج ما كان إليه	٧
أغنياء لا يرون لأنفسهم ملكاً حقيقياً	٧
من ملك المال فعوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه	٨
فصل: في الغنى وانقسامه إلى عالٍ وسافلٍ	٩
أقسام الغنى	٩
الغني السافل	٩
الغني العالي	٩
درجات الغنى العالي	١٠
الدرجة الأولى: غنى القلب	١٠
الدرجة الثانية: غنى النفس	١١
الدرجة الثالثة: الغنى بالحق سبحانه	١١
فصل: نعت الفقير حقاً	١٤
قاعدة شريفة عظيمة القدر: حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس بل وإلى الروح التي بين جنبيه	١٥

فصل: الناس يريدون منفعة أنفسهم لا منفعتك	١٦
فصل: إذا سُلبت نعمة فأنت السبب في ذلك	١٨
قاعدة: موقف العبد من البلاء	١٩
قاعدة: في الإنابة ودرجاتها	٢٠
قاعدة: الطريق إلى الله واحد	٢١
فصل: أقسام الزهد	٢٣
قاعدة: أسباب الصبر على المعصية	٢٦
فصل: أسباب الصبر على البلاء	٢٩
فصل: الحزن	٣١
فصل: الخوف	٣٢
فصل: الإيثار	٣٤
فصل: لا ألذّ لقلب المصلي ولا أقرّ لعينه من الصلاة إن كان محباً	٣٦
فصل: ذكر الله بالاسم المفرد " الله, الله" والاسم المضمر" هو, هو"	٣٧
فصل في مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها وهم ثمان عشرة طبقة	٣٨
الطبقة الربعة: ورثة الرسل وخلفاؤه	٣٨
الطبقة الخامسة: أئمة العدل وولاته	٣٩
الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله	٤٠
الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس	٤١